اللغة معرفة كونية

د. دليلة مزوز

ملخص المداخلة:

تمتلك اللغة نظاما قويا وقوة عجيبة في الإحاطة بكل القضايا الكونية ومعرفتها، فهي تعكس من خلال هذه القوة قوة الوجود وعظمته وسّره أيضا. إنها تحاكي الوجود في سكونه وحركته، في نظامه وقوته. وهي مجال مفتوح لامتناهي من المعاني والمعارف، تستقبل المعلومة في كل الأزمنة والأمكنة وتحفظها، وتستدعيها لتفسرها متى شاءت.

واللغة في وجودها الكوني ترجمان للوجود العقلي والحسي، وهي وسيلة إعلامية قديمة، تشكل امتدادات لأحاسيسنا ووظائفنا المتباينة. إنها وسيط حيوي تُحول العالم الجامد إلى عالم متحرك على المستوى التجريدي، وتعمل على وصفه بنقله إلى مدارج العقل ليبحث في كنهه، ويبسط نفوذه عليه بالبحث في دلائله وبراهينه التي تقودنا إلى فهم كل ما حولنا من مظاهر كونية حاضرة وغائبة.

وهي في بعدها الحسي نظام من الرموز والعلامات التي تحمل إشارات معرفية مفتوحة، لتحمل المعارف الإنسانية، هذه العلاقة الناشئة تبدأ بالنبش في حفرياتها، ومعرفة ظروف تشكل الحرف، وبناء اللفظ وحمل المعنى، وكذا الغوص في آليات العقل وتقاطع التفكير اللغوي بكل آلياته وقوانينه بالتفكير العلمي، واجتماعهما في منعطف المنطق ومسار الاستدلال.

أولا: ميلاد اللغة : نبش في حفرياتها:

لقد كان الإنسان العربي الأول فنانا في تشكيل حروفه وصياغة معانيه والنطق بها بصورة صوتية معبرة عما رسمته اليد ورأته العين، فيضع بذلك صورة كلامية كاملة للأفكار التي تدور في ذهنه، فينقلها بصدق وأمان من نقطة التقاطها صورة مجسدة في الواقع. حركت خياله ووجهت إدراكه، فحكم ذكاءه ليبدع حروفا ناطقة عبر الزمان والمكان. هذه الحروف التي تحولت عبر مسيرة تاريخية طويلة إلى جواد للكلمة، تحمل المعنى وتنطلق به بعيدا.

إن القراءة الأولية للحرف العربي وشكله تبعث تساؤلات في الذهن مفادها: من أين استوحى العربي الأول هذه الأشكال؟ وما علاقة الشكل بالمعنى؟ وهل يمكن الحديث عن علاقة منطقية بين الشكل الدال والمعنى؟ أم أن العلاقة تبقى اعتباطية؟

١. حرف الألف: فالألف شكل منقول عن صور كثيرة في الواقع، فهو الواحد من كل شيء، وهو علامة على وحدانية الله، قال تعالى:(قُلْ هُوَ اللّٰه أَحَدٌ (١ ، وهو الفرد من الرجال، وكل فرد لا شبيه له ألف٢، وهو عند الفينيقيين مشتق من رأس الثور ولفظوه أليف أي وديع ٣ وهو أدل الحروف في العربية وحتى في اللاتينية.

شكل الألف عند الفينيقيين: (،). وهو حرف نشيط، يكون دالا على التعريف، والتأنيث، ويرد همزة قطع، أو وصل، ويكون حرف علة، ويساعد على النطق بالكلمة وتمديدها.

٢. حرف الباء :فقد عرفه النبطيون ووضعوا له الرمز (،) ويقابله في الأرقام الرقم ٢ بالهندية (٢)، أما الفينيقيون فقد و ضعوه على الشكل ( ) ولفظوه بيت. أما الإغريق فقد لفظوه بيتا ورمزوا له بالشكل ( ) ثم تحول إلى الرمز الرياضي بيتا ( ).

وعرف الحرف معان كثيرة عند العرب فهو أكثر تمثيلا للبقر والبجع وأكثر إيحاء للشدة والقوة في الرجل الأب.٤

٣. حرف التاء : حرف قديم عرفه الفينيقيون ونطقه : (تاو) أو (تاء) ونطقه وسط بين الطاء والسين (وهذا ما يلاحظ في لهجات باتنة وقسنطينة وبسكرة) ٥ ورمزوا له بالشكل ( )، (T)، وهو شبيه بالمطرقة، وهو واحد في كتابته ونطقه في الفرنسية والإنجليزية أيضا.

ومعناه في العربية :البقرة الحلوب، وقيل التراب الذي سهل العبور عليه، وقيل الآنية التي تحلب فيها الناقة، وقيل التراب اللين الذي

يطلى به البعير من الجرب. ٦

قال المهلهل : ٧

أبي فَارس الهَيْجَاء في كُل حَوْمَة وجَدُك يَحْلبُ التَاءَ دائمًا

٤. حرف الثاء : حرف شبيه في رسمه بالباء، والتاء، وينطق وسطا بين الدال والسين، إذ نجد تأرجحه بين هذين الحرفين، ففي الإنجليزية ينطق قريبا من الذال مثل :(Every – Thing) ، وهو متكون من حرفين، أما في بعض اللهجات العربية ينطق (سينا) مثلما نلاحظ في المشرق : مثال تنطق مسَال. ولعل هذا النطق راجع إلى بقايا اللغات القديمة التي توارثناها عن الفينيقيين والنبطيين، وقد عرفه الفينيقيون ورمزوا له برمز شبيه بحرف التاء بالشكل (x. h) وفي بداية ظهور الإسلام ميز العرب بين الحروف الثلاثة :الباءُ والتاءُ والثاءُ بواسطة التنقيط، وقد ورد وضع النقاط الثلاثة في بادئ الأمر عموديا، ثم صار مثلثا أو قوسا صغيرا، . يفسر أحمد رضا سبب تشابه بعض الحروف إلى أن كل حرفين يلفظان من مخرج واحد يتشابه رسمهما في العربية والسريانية. ٨ ويرى عباس حسن أن حرف الثاء جمع في خصائصه الصوتية بين صوتين هما السين والتاء، يقول «فالثاء وهي تأنيث للسين الرقيقة، وتأنيث لتاء التأنيث »٩ فعند النطق بها يصحبها صفير نلمسه في نطق السين ولا يكاد حرف الثاء والتاء يختلفان في المعنى إلا في الإيحاءات الصوتية التي نستخلصها في المثالين الآتيين : حيث نطلق كلمة التراب للتراب للجاف، والثرى للتراب الندي. ومن معانيها : العين من كل شيء، والثاء الكافية يكتفي بها عند ذكر الثناء والثواب، والثابة مظلة يتخذها الراعي من أغصان الشجر، وهي عند الخليل بن أحمد الفراهيدي مأوى الغنم١٠.

٥. حرف الجيم : كتبه الفينيقيون ( ) ولفظوه (جيمل) ومن معانيه الجمل القوي أو الجمل المُغْتلم. «فلو تأملنا صدى صوت الجيم في أنفسنا مثلا، أي لو استبطناه لأوحى لنا بالضخامة كإحساس بصري وبشيء من الطراوة والحرارة كإحساس لمسي، وهذا ينسجم ما يوحيه منظر الجمل وملمسه، لا بل ورائحته الدسمة أيضا، وهكذا أطلق العربي بالفعل لفظة (الجيم الشامية) على الجمل الهائج"١١ ورمزه عند النبطيين مكتوب بشكل أفقي ( ) وهو الشكل الذي استقر عند العربية .وأضيفت له النقطة على يد الخليل بن أحمد الفراهيدي .

٦. حرف الحاء :عرفه الفينيقيون ورمزوا له ( ) ، ويتضح أن الرمز مطابق لنطق الحرف،حيث اشتهر الفينيقيون بفن العمارة، فأشادوا وشيدوا قصورا وأسوارا مازالت آثارها شاهدة بصور وصيدا حتى الآن،١٢ وقد عرف هذا الحرف حذفا وتطورا حتى صار على الشكل ( ) وهو حرفHاللاتيني أما الحاء فهو حرف انفردت بنطقه العربية،وقد عرف هذا الحرف تحسينات على يد الخطاطين في القرون الهجرية الأولى،وصار على الشكل التالي (حـ،حـ) .فالتبسيط مظهر حضاري .

٧. حرف الراء:عرف الراء عند الفينيقيين ورسموه بالشكل الآتي، ( ) ثم تطور إلى (و) ولفظوه (ريس) أي (ريش) التي تعني ريش الطيور١٣ وهو في شكله يشبه ريشة الطائر.

ورثه النبطيون وكتبوه : (،) غير أن القاعدتين اللتين كانتا في الأعلى انقسمتا، وصار جزءا في أعلى الحرف والجزء الآخر في أسفله على الشكل ( ). ومن معانيه الخوف، والرأي، وهو أيضا نبات له ثمار بيضاء ١٤

٨. حرف الزاي:رمز له النبطيون بـ (،) وعرفه الفينيقيون ونطقوه (زين) للدلالة على الجمال.ومن معانيه:الرجل الكثير الأكل،والجمع،والجلد اليابس١٥.

٩. حرف الطاء:عرفه الفينيقيون ونطقوا به (طيت)أو (الطاد) كما هو معروف في العامية الجزائرية،ووضعوا له الرمز ( ) ثم تحول إلى الشكل ( ) ،وقد عرف أشكالا شبيهة بالطاء الحديثة عند النبطيين قبل الإسلام ١٦ (، ،).

وفي اللغات اللاتينية الحديثة يكتب حرفين (TA) أو(TO) أو (Ti) باندماج التاء وحرف العلة الذي يصير نطقه مفخما. ومعنى الطاء مهبط الوادي، وقيل المكان السهل ١٧.

١٠. حرف العين:ارتبط ظهور هذا الحرف بالعين البشرية،ورمز له الفينيقيون ( ) ولفظوه (عين) وكتبه الأنباط (، ، عـ، ع، ع)،أما الرمز الأول الذي وضعه الفينيقيون فهو الذي تحول إلى حرف (a) أو (O). وللعين مائة معنى

منها:السحابة،والجاسوس،والسقاية. ١٨..

١١. *حرف السين*:عرفه الفينيقيون ورمز وا له بالشكل ( ) وهو مأخوذ عن العمود الفقري للسمكة ثم طوروه إلى الشكل ( ) وأخيرا ( ) ولفظوه(سامك) أو (سامق)[١٩]. وكتبه العرب النبطيون على الشكل : ( ) و( ) ونلحظ تشابها كبيرا بين الرمز الفينيقي والنبطي، ثم إن الحرف تحول من الشكل العمودي إلى الشكل الأفقي.

١٢. *حرف الواو*:عرفه الفينيقيون ورمزوا له ، (y) ثم تطور فيما بعد ليصبح على الشكل و ،). ولفظوه"واو" [٢٠] .وقد عرف هذا الشكل تطورا في العصر الجاهلي :(و) أو( ) ويلفظ بضم الشفتين ورد الهواء إلى الخلف أي في جوف الفم .ومن معانيه البعير ذو السنام العظيم، الجمل الذي له سنامان، وقيل البعير الفالج، وقيل الموت.[٢١]

١٣. *حرف الباء*:رمز له الفينيقيون ،( ) ثم تطور إلى الشكل : ، ،

ولفظوه:يد أو يود ولعلنا نلحظ العلاقة الطبيعية بين شكل الحرف ولفظه ويد الإنسان[٢٢].

الشكل (١) جدول يبين شكل الألف وتطوره عبر العصور التي مر بها

	ق3	ق 4هـ	ق 5هـ	ق 6هـ	الألف عند الخليل بن احمد الفراهيدي
					أ

الشكل (٢)

صورة الألف في العربية	الفرنسية والانجليزية	الحروف العربية والأجنبية التي تشتمل على ألف
أ	A	ع،غ،ح ح خ، ل،ك،ط،ظ،م A,B,D, J,L.....

نستنتج أن الحرف العربي هو الحرف الحاضر في كل العصور في العربية والفرنسية والانجليزية.

الشكل (٣)

حرف الباء	عند الفينيقيين	عند الإغريق	معانيه	حرف الباء في اللاتينية
		بيتا	البقر والبحع القوة	حرف الباء بالفرنسية شبيه إلى حد كبير بالشكل الإغريقي

حرف الطاء	عند الفينيقيين	عند النبطيين	حرف الراء لما جاء الإسلام
			استقر هذا الشكل مع بعض التحسينات الطفيفة فيه.

الشكل (٥)

حرف الواو	عند الفينيقيين	في العصر الجاهلي	معانيه
			البعير ذو السنام العظيم، الموت،...

ثانيا: علاقة الصوت بالشكل:

إن طبيعة العلاقة بين الحرف والصوت لا يمكن إدراك أسرارها، أو الوقوف على ماهية العلاقة بينهما، ما لم نستقرئ الدراسات العربية القديمة، ونقف على ما قاله اللغويون في هذا المجال وما خلصوا إليه من رأي يثبتون به أو ينفون هذه العلاقة. فالعلاقة بين الدال والمدلول تعود إلى الدراسات الفلسفية عند الإغريق الذين تركوا أثرا واضحا في الدراسات اللغوية العربية.

فالجاحظ في تعريفه للصوت يدرك العلاقة بينه وبين اللفظ، يقول:" والصوت هو آلة اللفظ وهو الجوهر الذي يقوم به التقطيع وبه يوجد التأليف، ولن تكون حركات اللسان لفظا ولا كلاما موزونا ولا منثورا إلا بظهور الصوت، ولا تكون الحروف كلاما إلا بالتقطيع والتأليف"٢٣

فالصوت هو المظهر المادي الفزيولوجي المسموع واللفظ هي تلك الرقوم التي تدرك بحاسة البصر، ومن ثم كانت حاستا السمع والبصر متلازمتين في عملية التكلم.

أما من جهة علاقة الصوت بالحرف فيمكن تلمسها في الرواية التي نسبت إلى أبي الأسود الدؤلي،لقد كان أول من فكر في وضع رموز للحركات يضبط بها الرسم القرآني حتى لا يتفشى اللحن، يروى عن المبرد أنه قال:" لما وضع أبو الأسود النحو، قال:ابغوا إلي رجلا وليكن لقنا، فطلب الرجل،فلم يجد إلا في عبدَ القيس، قال خذ المصحف وصبغا يخالف لون المداد، فإذا فتحت شفتي فانقط نقطة واحدة فوق الحرف ، وإذا ضممتهافاجعل النقطة إلى جانب الحرف، وإذا كسرتها فاجعل النقطة في أسفله، فإذا اتبعت شيئا من هذه الحركات غُنَّةً فانقط نقطتين ".٢٤

هذه صورة من صور ارتباط النطق بشكل الحرف، وإذا كانت الحركات قد ارتبطت بشكل النطق،فهل معنى هذا أن كل حروف العربية لها علاقة منطقية بالصوت؟ يمكن أن نحدد من خلال إيحاءات صوتية لبعض حروف العربية مثل :الواو،واللام،والسين، والألف، والصاد و الطاد والظاء والضاد.

- فالواو تنطق باجتماع الشفتين مشكلتين دائرة صغيرة o ثم تنفرجان، فينخفض الحنك الأسفل الذي هو في – نظري- ذيل الواو أو ذلك الانحراف الممتد والذي يشبه في شكله حرفي الراء والزاي

أما اللام، وهو حرف مجهور يتشكل على مرحلتين هما:

أ- المرحلة الأولى: تلتصق مقدمة اللسان بسقف الحنك قريبا من اللثة فينحبس الهواء مشكلا خطا عموديا.

ب- المرحلة الثانية: ينفك اللسان، وينفلت النفس نحو الخارج فيتشكل الخط المنعرج أسفل اللام على النحو :"ل" وهكذا فإن "طريقة النطق بصوت اللام تماثل الأحداث التي يتم فيها الالتصاق مما يجيز تصنيفها في فئة الحروف الإيمائية التمثيلية وهي هنا لمسية وقد صنفت من الأحرف الذوقية". ٢٥

الشكل (٦): تشكل اللسان أثناء النطق

الشكل (٦): تشكل اللسان أثناء النطق

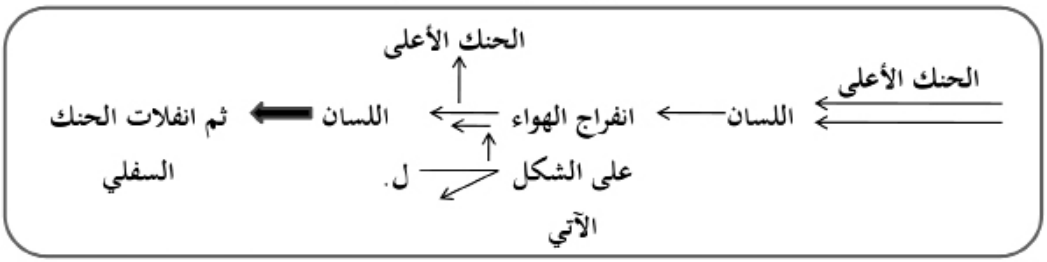

وأما السين فحرف مهموس، يخرج من بين الأسنان، يتسرب الهواء بينهما، فيحدث الصوت، ولعل رأس السين يمثل الأسنان التي يخرج من بينها الهواء .

وأما الألف فحرف طليق لطلاقة الصوت أو جريان الهواء في الفم بحرية حيث إن شكله يمثل امتداد الفم عموديا أثناء النطق.

و أما حروف الإطباق الأربعة فإن شكلها يعكس نطقها ؛إذ الإطباق معناه أن يكون اللسان مطبقا (ملتصقا)مع الحنك الأعلى وفي هذه الحالة فإن صورته تكون مساوية لخطين متوازيين ملتصقين من الأطراف، ثم إن الألف المصاحبة للظاء والطاء تعبر عن وضعية انطلاق الهواء واستعلاء الحنك الأعلى (نحو الأعلى). يقول المالقي " فالأحرف المطبقة : الطاء والظاء والصاد والضاد. وسميت بذلك لانطباق ظهر اللسان مع الحنك الأعلى عند النطق بها ، ولهذا كتب كل واحد منها من خطين متوازيين متصلي الطرفين إشعارا بمخرجها" ٢٦

ثالثا : اللغة واختراق حدود الزمن:

إن تفاعل اللغة مع الزمن ، تفاعل متعدد الأوجه. إنها رصيد معرفي عابر لحدود الزمن ؛هذا الزمن الممتد في الماضي والحاضر والمستقبل نسمه بالزمن الأفقي . وأما الزمن الذي يخترق عالم الشهادة وعالم الغيب، و الحسي والمجرد، نسمه بالزمن العمودي. هذان الامتدادان اللذان تجول من خلالهما اللغة للبحث عن الحقائق الخفية وتفسيرها ونقلها للأعيان .

فاللغة تنتقل عبر خط الزمن الانهائي لتقرب لنا الماضي وتجعلنا نراه ونحياه . ثم تقفز بنا إلى المستقبل وتدفعنا لاستشرافه والحديث عنه وبسط توقعاتنا انطلاقا من ماضينا وحاضرنا واعتماد دلائل وبراهين محيطة بنا .ثم هي تستند إلى عالم الشهادة لتفسير الغيبيات وكشف حقائق الوجود، وقراءة كتاب الكون الفسيح .

إن علاقة اللغة بالوجود خفية وقوية تحكمها أنظمة الرموز والعلامات ، وقد أدرك العالم الإيطالي جزءا من هذا النظام المتمثل في لغة الرياضيات التي يحملها الكون ، يقول :"لا يمكن لنا فهم هذا الكتاب إذا لم نعكف على فهم لغته، ومعرفة الحروف التي تتشكل منها هذه اللغة ، إنه مكتوب في لغة رياضية ، وحروف هذه اللغة هي المثلثات والدوائر وغيرها من الأشكال الهندسية " ٢٧

رابعا : الوجود ، الإنسان ، اللغة :

إن رسالة السماء إلى الأرض كانت إنسانية خالصة ، وعظمتها تكمن في حملها لإشارات فهم الوجود والإنسان . فاللغة أداة طيعة في يد الإنسان يحركها في كل الاتجاهات، ليفسر بهاما غمُض وينقل بها ما وضُح .وقد تتعمق أكثر في ما جاء به رب البرية من إعلان لحقائق وجودية غيبية لا يدركها الإنسان، يقول تعالى :(تُسَبّحُ له السَّماواتُ السَّبعُ والأرضُ وما فيهنَّ و إنْ منْ شَيء إلَّا يُسَبحُ بحمْده ولكنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبيحَهُم إنَّهُ كانَ حليمًا غفُورًا(. ٢٨ وقد فسر ابن كثير قوله تعالى :" ولكن لا تفقهون تسبيحهم أيها الناس ، لأنه بخلاف لغاتكم وهذا

عام في الحيوانا ت والجمادات والنباتات"٢٩. وفي حديث رسول الله " عن أبي ذر أن النبي (أخذ في يده حصيَّات فسمع لهن تسبيح كحنين النحل ".٣٠

فكان جواب الله تعالى للإنسان أن هناك لغات لكل المخلوقات ، ولكن لا يدركها لمحدودية عقله ورحمة من ربه به . واستثنى النبي ﷺ حيث كان يسمع تسبيح الحجر والشجر والحيوان.

وبهذا يسقط الاعتقاد السائد أن الإنسان المخلوق الوحيد الناطق في هذا الوجود " فالكون مسرح هائل للغات لا تتناهى ولأحاديث لا تتوقف"٣١

لقد أفصح القرآن الكريم عن معلومات دقيقة تهم بتفسير العالم الخفي على الإنسان ؛ فالوجود مازال يخفي كثيرا من الأسرار عن الإنسان واللغات.

خامسا : اللغة حضارة الإنسانية :

إن أعظم فتح في تاريخ الإنسانية هو اللغة ؛ هذه اللغة التي بثّها الله في الإنسان وحبا ه بها ، وجعلها أداة طيعة في يده ، يتواصل ويعبر عما يجول في خاطره وما يقع عليه ناظره ، بل هي أكثر من ذلك وسيلة للعبادة والتقرب إلى الله تعالى . فاللغة بهذه الخصائص تعد حضارة للعقل والدين والتاريخ ، وإلى هذا يذهب ابن تيمية ،يقول:"واعلم أن اعتياد اللغة يؤثر في العقل والدين تأثيرا قويا ".٣٢

ولولاها لبقي الإنسان حبيس الكهوف والمغارات؛ إذ أنها عجلة الحضارة التي ركبها الإنسان منذ القديم حيث طور بها معارفه وعلومه وأبحاثه ، ونقلها عبر الزمان والمكان. وهذا إدوارد سابير (E. sapir) يؤكد :" بأن اللغة أقدم ما خلفه الجنس البشري من تراث"٣٣. ثم يضيف بأن اللغة أسبق من الثقافات الإنسانية نحو التدرب على النار أو قطع الحجارة ، يقول: "وأميل إلى الاعتقاد بأن اللغة سابقة للتطورات المادية للثقافة، وأن تلك التطورات في حقيقة الأمر ليست ممكنة الوجود قبل أن ينبني النظام الخاص للغة أداة التعبير المفيد"٣٤.

وتشير مصادر التاريخ الإسلامي أن آدم لما نزل إلى الأرض كان يحمل معه لغته. هي إذا رسالة السماء إلى الأرض . فالرسائل الربانية عبر التاريخ تقر بأن الإنسان مخلوق متكلم مفكر ، ولذا دعته بكل الألسنة وفي كل الأزمنة إلى إعمال الفكر وتجوال الذهن في مظاهر الخلق للتوصل إلى حقائق رامزة بثها الله في الكون .

والرسالة المحمدية كانت لسانية ، سمَت بالعقل وحررت اللسان والقلب من عبادة الأوثان ووحَّدتْ نظام فكر الإنسان وقلبه وروحه ، ودعته إلى تبني عقيدة التوحيد ، بل الانصهار فيه لأنه القانون الذي يحكم الوجود . فوحدة الدين هو وحدة الخالق ووحدة اللغة.

ومن ثم يمكن أن نحصر عوامل بقاء اللغة العربية واستمرارها في مايلي:

١-القرآن الكريم : إذ يمثل العروة الوثقى التي أبقت على ثبات اللغة العربية واستقرارها ، فهو الكتاب الذي بثَّ في الناس الألفة والمحبة ثم إنه فتح بابا للتعبير والإبداع بغير الشعر ، فظهرت الكتابات النثرية الراقية على أيدي لفيف من علماء القرون الهجرية الأولى نحو عبد الحميد الكاتب وابن المقفع وغيرهما .

٢- التراث النحوي واللغوي : شكَّل هذا التراث بمصنفاته المتعددة من معاجم ،وموسوعات وكتب نحوية،وبلاغية سندا قويا ، وعاملا مهما في ثراء اللغة وانتشارها بين المتعلمين خاصة .

٣- أشعار العرب ودواوينهم : الشعر ديوان العرب ، فهو سجل أخبارهم ومسامراتهم ورحلاتهم ، وثقافاتهم، وحياتهم الفكرية والاجتماعية . إذ استطاع هذا الشعر أن يمدنا بصورة صادقة عن الزمن المفقود ، وبهذا ربط جسر التواصل بين الزمن الضارب في عمق التاريخ بعصر تتطاول أسبابه إلى أعناق السماء مع الأبحاث العلمية . فاللغة العربية تمتلك من المرونة مالا نجده في لغات أخرى من العالم يقول أنور الجندي :"فالألماني المعاصر مثلا لا يستطيع أن يفهم كلمة واحدة من اللهجة التي كان يتحدث بها أجداده منذ ألف سنة ، بينما العرب يستطيعون فهم آداب لغتهم التي كتبت في الجاهلية قبل الإسلام ".٣٥

٤-اللغة العربية هي لغة التعليم في الوطن العربي وكل بلدان العالم : إذ لا بديل عنها في التعلم والتأليف ، وهي أيضا لغة الإعلاميين والرياضيين والتقنيين ، وهي لغة الإدارة والمراسلات الرسمية في دواوين الدول العربية .

٥- سعة مفرداتها ودلالاتها: التي ناءت بها المصنفات والكتب التراثية إضافة إلى تمتعها وتنوعها بالأساليب المجازية التي تعمل على تنويع صنوف المعاني وضروب الكلام . وهي مع ذلك أكثر اللغات اختصارا في إيصال المعاني . وقد أحسن الفارابي حين وصفها ودقق وصفها ، يقول :"هذا اللسان كلام أهل الجنة ، وهو المنزَّه من بين الألسنة من كل نقيصة ، والمعلَّى من كل خسيسة ، والمهذب من كل ما يُستهْجن أو يُستشْنع ، فبنى مباني بايَن بها جميع اللغات من إعراب أوجده الله له ، وتأليف بين حركة وسكون حلاّه به "٣٦

خامسا- اللغة معجم مفتوح:

حينما فكر العرب في وضع معاجم تحفظ لغتهم لم يكونوا يجهلون قيمة المعجم في الإبقاء على هذه اللغة ، حيث عكست المعاجم حضارة فكرية ميزت العرب عن سواهم ، فكان المعجم اللغوي الممتد من القرن الأول الهجري إلى القرن الثامن منه قد مثل زخما معرفيا رائدا في حضارة الفكر العربي ، فجميع ما كتب من شعر ونثر حمل إلينا منهجا وفكرا .

إضافة إلى ذلك ما حملته حضارة الإسلام إلى الإنسان واللغة ، فجعلت منه إنسانا عقليا ووجدانيا ودعته إلى التأمل والتدبر في كل مظاهر الكون يقول تعالى :(أَفَلَمْ يَسيرُوا في الأَرْض فتكونَ لهم قلوبٌ يَعْقلونَ بها أو آذانٌ يَسْمَعُونَ بها فإنَّهَا لا تَعْمَى الأبصارُ لكن تعْمَى القُلوبُ التي في الصُّدور(٣٧ .

ويكون موقف آخر للتأمل في خلق السماوات والأرض. تأمُّل يدعو إلى إعمال العقل في كل هذه الحياة والنظر إلى أسرارها وغاياتها ، و معرفة أنها الدار الفانية . يقول تعالى :(أولم يَنْظُرُوا في مَلَكُوت السَّمَاوَات والأَرْض وما خَلَقَ اللَّهُ منْ شَيء وأنْ عَسى أنْ يكُونَ قد اقْتَرَب أَجَلُهُم فَبأَيّ حَديث بعدهُ يُؤمنُونَ (.٣٨

فالتوجيه الفكري والمنهجي للإبداعات والكتابات صار أمرا محتوما ، فأصبحت اللغة أكثر ترويضا مع هذا الباعث الجديد ، والمحرك الفعال للفكر والحياة بعامة فانتقلت من التعبير عن عوالم المادة والحس إلى التعبير عن التجريد٣٩.

ويكون بذلك انتقال من وظيفة الأداة إلى وظيفة الموضوع للتعبر مرحلة ثالثة تتصهر فيها الأداة بالموضوع.

فالتآليف التي عُرفت في القرن الثالث والرابع والخامس الهجري دخلت فيه اللغة مرحلة جديدة ، هي مرحلة العقل والعلم . فصارت تتحدث عن نفسها بنفسها أو ما أسماه عبد السلام المسدي لغة التفكير في اللغة٤٠.

حيث تولَّد معجم جديد مُوسَّع ينظر إلى الآفاق فيصفها ويحللها ويستفسر عنها إذا استعصى على صاحبها الجواب ؛ هذا المعجم وسمه الباحثون بالمعجم الوجداني والعقلي والعلمي والرمزي . هذه المراحل الأربعة تلخص رحلة اللغة مع مستعمليها في اختراق الآفاق البعيدة ؛ حيث انتقل العربي فيها من مرحلة البداوة -إذ كان يقرض الشعر ولايهتم بغيره – إلى مرحلة التأمل في ما حوله والتفكير فيما وراء الطبيعة ، و هذه المرحلة قد شد طرفاها علماء الفلك والرياضيات والكيمياء والطب من جهة وعلماء الفقه والتصوف من جهة أخرى .وبذلك انبرت اللغة تسيح في الآفاق وتبحث عن المجهول ، وتعبر عنه بشتى الرموز، حيث أصبحت فنا للترميز كأن ليس لها من علة إلا فك شفرات الكون. وتحولت من لغة البديع إلى لغة الإيجاز والمجاز كما يقول النّفري:"كلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة"

فلنتأمل ماذا فعلت حضارة القرآن باللغة العربية ، حيث جعلتها لغة كونية ، تشتغل بكل مظاهر الكون وعلومه ؛ فهي اللغة الواسعةُ المطواعةُ التي تحمل لغة الأرقام والكلام والرموز، وتتحدث عن الشاهد والغائب . وفوق هذا كله فهي تصف لنا بدقة الحياة الآخروية بجنتها ونارها وصفا دقيقا يكاد يحول العبارة إلى مشهد مرئي يعج بالحركة والأحداث . ولو تأملنا ما كتبه النفري في المواقف والمخاطبات لتجلت لنا عظمة اللغة العربية التي اخترقت حدود الزمان والمكان لتحمل العقل إلى إدراك دقيق لكل مشاهد يوم القيامة ، يقول في وصف النار :"وقال لي ما النار ، قلت:نور من أنوار السطوة . قال مالسّطوة ، قلت: وصف من أوصاف العزة ، قال مالعزَّة قلت:وصف من أوصاف الجبروت، قال ما الجبروت، قلت : وصف من أوصاف الكبرياء ، قال ما الكبرياء ، قلت وصف من أوصاف السلطان ، قال مالسلطان ، قلت: وصف من أوصاف العظمة ، قال مالعظمة ، قلت : قلت وصف من أوصاف الذات . قال ما الذات ، قلت : أنت الله لا إله إلا أنت ، قال قلت الحق " ٤١. وعلى الرغم من غموض ما يقوله النّفري ، غير أننا نلمس دقة في الوصف ؛ هذا الوصف الذي لا يعزُبُ عنه عقل عاقل ، أو مدرك للحقيقة الإلهية والكون . و أن ما نلمسه من هذه العبارات الرامزة قوة وعظمة وعقابا يليق بالكافرين .

ولو تأملنا وصفه للجنة لأدركنا حقيقة ربانية أخرى ، وهي درجة النعيم الذي أعدّه الله للمتقين ؛ هذا الله العادل تجتمع فيه القوة والعظمة والسلطان والجبروت، وفي هذه الأوصاف قوة للعذاب وقوة للثواب . يقول النفري:"وقال لي ماالجنة ، قلت: وصف من أوصاف التنعيم ، قال ما التنعيم ،قلت:وصف من أوصاف اللطف ، قال ما اللطف ، قلت: وصف من أوصاف الرحمة ، قال ما الرحمة قلت : وصف من أوصاف الكرم ، قال مالكرم، قلت : وصف من أوصاف العطف ، قال ما العطف ، قلت وصف من أوصاف الودّ ، قال ماالودُّ ، قلت : وصف من أوصاف الحبّ ، قال ما الحبُّ ، قلت: وصف من أوصاف الرضا ، قال ماالرضا ، قلت وصف من أوصاف الاصطفاء ، قال ماالاصطفاء ، قلت:وصف من أوصاف النظر ، قال ما النظر ، قلت وصف من أوصاف الذات ، قال ماالذات ، قلت: أنت الله، قال قلت الحق "٤٢.

فلنتأمل هذا التجلي الفعلي الذي ارتقت به اللغة أيضا ، حيث يستحضر العارف هنا الذات الإلهية ، ويتمثلُها في خطاب راق متعال ، ترتفع درجاته لتصل إلى سُدرة المنتهى، ويستحضر صفاته التي ترتبط بكل الخلق . فإذا أدركناه عرفنا عذابه وثوابه، وعرفنا ذاته أيضا.

من خلال هذا المستوى اللغوي الذي خاضه العارفون، أدركنا دون تردد قوة اللغة العربية في حمل المعاني المجردة المتعالية الرامزة التي لا يمكن إدراكها أو الوصول إليها بغيرها . إنه مستوى آخر من عظمة اللغة التي اختيرت لأن تحمل رسالة رب السماء إلى أشرف مخلوق على وجه الأرض ، وتخاطب عقله ووجدانه ؛ لأن الإدراك الفعلي هو نقطة التقاطع بين قوة العقل والعاطفة ."فمع النفري يتخذ فعل الكتابة بعدا ماورائيا ويتحول إلى كتابة قصيدة جديدة تؤسس بقدر ما تمحو ، وترمز بقدر ما تكشف اللغة "٤٣.

أما الفارابي فقد أدرك العلاقة الخفية بين اللغة والوجود فقوتها عنده" لا في ألفاظها ومعانيها وإنما في تعاملها مع الموجودات وإخراجها من المضمر إلى المظهر ، ومن الخفي إلى المرئي "فالتسمية والإشارة دلائل بيان وإفصاح"٤٤

وصفوة القول : إن النص القرآني الخالد أسّس للغة فارقة ، لغة كونية ، وبثَّ فيها روحا وعقلا ، فصارت تمثل منهجا بعينه ونظرية فريدة في الكلام والفكر ؛ منهج قوامه قوانين العربية ومستقراتُها من صوت وصرف ونحو . ومتغيراتها الماثلة في ألفاظها ودلالاتها التي أنتجت لنا وعيا جديدا بالأدب والعلم والكون.

الهوامش:

١. الإخلاص/١

٢ . إغاثة الملهوف في شرح منظومة الشيخ محمد بن حميد الأنصاري في معاني الحروف، ص٤٠.

٣ . خالد قطيش، الخط العربي و آفاق تطوره، ص٥٧.

٤ . عباس حسن الموقع الإلكتروني : www-awarg-dam.org

٥ . هذه مدن تقع بالشرق الجزائري ، أما مدينة بسكرة فهي في الجنوب الشرقي ، وكلها تبعد عن بعضها بمسافة ١٣٠كلم . وتبعد عن العاصمة بحوالي ٤٠٠ كلم تقريبا تتميز بنطقها المتباين.

٦ . إغاثة الملهوف، ص١٢

٧ . خال امرئ القيس ، وهو عدي بن ربيعة ، ولقب بالمهلهل لأنه أقل من هلهل الشعر أي رققه. إغاثة الملهوف ،ص ١٢.

٨ .أحمد رضا ، رسالة الخط، طبع بسوريا سنة ١٩١٤، ص١٢.

٩ .عباس حسن ،www-awu-dam.org .

١٠ . إغاثة الملهوف ، ص١٢- ١٣.

١١ . عباس حسن ، الموقع الإلكتروني : www-awu-dam.org

١٢ . خالد قطيش ، الخط العربي و آفاق تطوره،ص٩٠.

١٣ . المرجع نفسه ، ص١٠٩.

١٤ . إغاثة الملهوف ، ص١٩.

١٥ . المرجع نفسه ، الموضع نفسه.

١٦ . الخط العربي وآفاق تطوره، ص١٢١.

١٧ . إغاثة الملهوف، ص٢٣- ٢٤.

١٨ . المرجع نفسه ، ص٢٥.

١٩ . خالد قطيش ، الخط العربي وآفاق تطوره، ص١٩٣.

٢٠ . المرجع نفسه ، ص٢١٣.

٢١ . إغاثة الملهوف ، ص٥٣.

٢٢ .خالد قطيش، الخط العربي وآفاق تطوره، ص٢٣٠.

٢٣ . البيان والتبيين ، ج١، ص٥٨.

٢٤ أبو عمرو الداني ، المحكم في نقط المصاحف، ص٤. وينظر : ابن الأنباري ، كتاب إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عزّوجلّ ،ص٤١.

٢٥ . عباس حسن ، الموقع الإلكتروني :www-awu-dam.org

٢٦ . عبد الواحد المالقي ، شرح كتاب التيسير للداني في القراءات المسمى الدر النثير والعذب المنير ، ص١٨٥.

٢٧ . l'essayeur،édition belles-lettres : galilio galilée، ١٩٨٩ ; tradition de c.chouviré p : ١٤١. نقلا عن ، إلياس بلكا ، اللغة والمنطق وحدود الإنسان ، مقال بمجلة التسامح ، تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الدينية سلطنة عُمان . العدد ٢٥، ٢٠٠٩م ، ص ٣٢٤.

٢٨ . الإسراء / ٤٤.

٢٩ . تفسير القرآن العظيم ، ج٣، ص٥٩.

٣٠ .المصدر نفسه، ج٣، ص٦٠.

٣١ . إلياس بلكا ، اللغة والمنطق وحدود الإنسان، ص٣٢٤.

٣٢ . اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم ، ج١،٤٦٩.

٣٣ .اللغة مقدمة في دراسة الكلام ، ص٣٥.

٣٤ .المرجع نفسه ، الموضع نفسه.

٣٥ . أنورالجندي ، الفصحى لغة القرآن ، ص٣٠٦.

٣٦ . معجم ديوان الأدب ، ج١، ص٧٢.

٣٧ .الحج/ ٤٦.

٣٨ . الأعراف/ ١٨٥ .

٣٩ .عبد السلام المسدي ، محاضرة : المعجم اللغوي التاريخي ، مقدمة في مؤتمر الدوحة للمعجم التاريخي ، نوفمبر ٢٠١٤ .

٤٠ .المرجع نفسه .

٤١ .مواقف ومخاطبات ، ، ص١٢٠.

٤٢ . المرجع نفسه ، ص١٢٠.

٤٣ . عفيف الدين التلمساني ، شرح مواقف النفري ، ص٥٦٤.

٤٤ .إدريس كثير و عزالدين الخطابي ، اللغة مثوى الوجود، علاقة اللغة بالوجود عند الفارابي، مقال بمجلة نزوى ، العدد١٢، أكتوبر ١٩٩٧، ص٦٢.

قائمة المصادر والمراجع :

- القرآن الكريم، برواية حفص ، دار الخير للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط٤، ١٤٠٦هـ
- أحمد رضا ، رسالة الخط ، طبع في سوريا ، ١٩١٤م.
- إدوارد سابير ، اللغة مقدمة في دراسة الكلام ، ترجمة : المنصف عاشور ، الدار العربية للكتاب ، تونس ، ١٩٩٥م.
- عبد الحميد بن محمد بن أحمد بن حماد الأنصاري الخزرجي :
- إغاثة الملهوف في شرح منظومة الشيخ محمد بن حميد الأنصاري في معاني الحروف ، مخطوط١٩٩٩ م.
- ابن الأنباري(أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار الأنباري النحوي ت٣٢٨هـ) :
- كتاب الوقف والابتداء في كتاب الله عزوجل ،مخطوط.
- أنور الجندي ، الفصحى لغة القرآن، دار الكتاب اللبناني .
- ابن تيمية (أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ت٧٢٨هـ):
- كتاب الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، المحقق:ناصر عبد الكريم المقبل ، مكتبة الرشد ،الرياض، السعودية
- الجاحظ(أبو عثمان عمرو بن بحر ت٢٥٥هـ):
- البيان والتبيين ، تحقيق: درويش جويدي ، المكتبة العصرية ، صيدا بيروت ، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م .
- خالد قطيش ، الخط العربي وآفاق تطوره ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر .
- الداني (أبو عمرو عثمان بن سعيد ت٤٤٤هـ):
- المحكم في نقط المصاحف ،تحقيق، عزة حسن ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، لبنان ،ودار الفكر ، دمشق سوريا ط٢، ١٩٩٧م.
- السيوطي (الإمام جلال الدين عبد الرحمان بن أبي بكر ت٩١١هـ):
- المزهر في اللغة ، تحقيق: فؤاد علي منصور ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، ط١، ١٩٩٨م.
- عباس حسن ، الموقع الإلكتروني www-awu-dam.org.
- عفيف الدين التلمساني (ت٦٩٠هـ)
- شرح مواقف النّفرّي، دراسة وتحقيق، جمال الدين المرزوقي ، مركز المحروسة ، مصر ، ط١، ١٩٩٧م.
- الفارابي(أبو نصر محمد الفارابي ت٣٣٩هـ)
- معجم ديوان الأدب ، تحقيق:أحمد مختار عمر ، مؤسسة دار الشعب للصحافة والطباعة والنشر ، القاهرة ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م .
- ابن كثير (الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ت٧٧٤هـ)
- تفسير القرآن العظيم ، تقديم : عبد القادر الأرناؤوط، دار ابن باديس ، الجزائر ،ط٢، ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م.
- المالقي (عبد الواحد بن محمد بن علي بن أبي السَّداد أبي محمد المالكي الشهير بالمالقي ت٧٠٥هـ)
- شرح كتاب التيسير للداني في القراءات المسمى: الدر النثير و العذب المنير ، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط١، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.
- النّفري(محمد بن عبد الجبار النفري ت٣٥٤هـ)
- كتاب المواقف والمخاطبات ، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.

الدوريات:

- مجلة التسامح، مجلة فصلية ، تصدر عن وزارة الأوقاف والشؤون الدينية ، سلطنة عمان ، العدد: ٢٥، ٢٠٠٩م.
- مجلة نزوى ، العدد ١٢، أكتوبر، ١٩٩٧م.